المجمع الماروني «بطريركي» وليس «لبنانياً»... قرينة على غلبة الشتات؟

وضاح شرارة *

■ حفلت مناقشات دورة المجمع البطريركي المارونى الأولى (من الأول من حزيران/ يونيو الى السابع منه ومن السادس عشر الى الحادي والعشرين)، شأن ديباجة البيان الختامي (في صحف ٢٢ حزيران)، بعبارات وكلمات تدل على محاولة المجمعيين الموارنة، بلبنان والانتشار، الجمع بين وجوه متباينة ومتفرقة تعرّف احوالهم وأعمالهم ومنازعهم، اليوم. فالكنيسة المارونية، على قولهم، تأتلف من «بعدين: كاثوليكي ومشرقي». ورعاياها ينتسبون، في آن، الى الكنيسة الجامعة والواحدة و«الرومانية» – على مثال اوسع وأعرض سلطان ارضي ودنيوي عرفه العالم القديم، هو السلطان الروماني، وكني به عن البشرية و«المسكونية» –، وإلى كنيسة «أم» شدتها حوادث تاريخها الى «ارض لبنان»، ورسختها في «العالم العربي»، وتحدر إليها «تراث انطاكي سرياني» و«مشرقي» الجذور، فنسبها الى «عائلة الكنائس السريانية المنتشرة من البحر المتوسط الى المحيط الهندي».

ويعول اهل المجمّع على «لقاء البعدين» هذين. ويحملون عقد مجمعهم، وهو الثاني بعد مجمع لبناني يعود عقده الى ١٧٣٦، على «الربيع المتجدد الذي طلع على الكنيسة الجامعة بفضل المجمع الفاتيكاني الثاني». وهذا كان مسكوناً عاماً، أصغى الى أصوات أساقفة افريقيين وآسيويين وأميركيين جنوبيين وشرق اوسطيين، ويرقى ختامه الى ١٩٦٥. واضطلع فعلاً بـ«ثورة» فكرية كنسية ادخلت اهل الاعتقاد الكاثوليكي في زمن كان بعضهم يخاصمون حداثته، وكانت مقالاتهم المعلنة ترى إليه ضداً او نقيضاً نهض على أنقاض الكثلكة ومذهبها في الثقافة والتاريخ والاجتماع والسياسة. وعلى نحو ما يحمل اهل «المجمع البطريركي» مؤتمرهم على حافز جامع، منشاه مجمع كاثوليكي ومسكوني «روماني»، يحملونه، ومن وجه ملازم، على «حاجة الكنيسة المارونية الى ان يلتقي ابناؤها (...) وأن يصلوا معاً...».

وعلى مثال قريب يريد اهل المجمع التأليف بين «تراث نسكي» و«عيش رهباني»، وهما قرينة على صدارة «الداخل» الكنسي والإيماني على «الخارج» الاجتماعي وهيئاته، وبين «الفعل في الزمن الحاضر»، و«الاندراج في العالم العربي» و«تعزيز الحوار المسيحي – الإسلامي». وهذان «بعدان»: «تأملي ورسالي» على قول البيان الختامي. ويسعى اهل المجمع في «الأمانة» لهما كليهما.

والكنيسة المارونية، هي كذلك بطريرك، ينهض بقطب التوحيد والقبض، وهي علمانيون يتولون اضطراراً قطب الكثرة والبسط. وإذا كان البطريرك، والمجمع «منذور» له ولسدته، عَلَم على النظام الكنسي، والتراث الكنسي، والليتورجيا الكنسية، والكرازة والشرع، فالعلمانيون مسارحهم العائلة والمرأة والشباب. وهذه، بدورها مدارها على «الحياة» والإنجاب والسعي والعمل والدراسة والهجرة والسياسة. وهذه تدعو الى التغير و«الإصلاح». فعلى «رتبة القداس» ان تُنقل «موحدة» الى موارنة المهاجر المتكاثرة والمتسعة «بلغاتهم الحية كلها». فيدخل «عنصر التنوع» «عنصر التوحيد» الذي تضطلع به «الليتورجيا (الشعائر) المقدسة»، ورتبة القداس شعيرتها الأولى.

وعلى رغم ان «الكنيسة المارونية لم ترد يوماً في المجال السياسي ان تكون كنيسة قومية» فلبنان «وطنها الروحي». وهو مصدر معظم موارنة الانتشار، ومرجعهم، ومحل كرسي بطريركيتهم. ولا ريب في ان الانتشار – ولا نقول الكنيسة الشتات ربما دفعاً للغائلة – يصيب روابط المهاجرين بمنابتهم، وأواصر جيل اليوم بأجيال الأمس القريب والبعيد، بالضعف والارتخاء. وتقلق هذه الحال المجمعيين قلقاً شديداً، يكاد يكون طاغياً. ولكنهم على بيّنة، من وجه ثان، من ان جزءاً من الانتشار يعود الى خسارة لبنان شطراً عظيماً من «حريته»، ومن «عيشه المشترك»، على ما تقول ادبيات الكنيسة المارونية التاريخية، فيما يعود جزء آخر منه الى «ظروف العولمة والانتشار» و«تكامل الحضارات». فيذهب المجمعيون الى ان المرحلة هي مرحلة «التوفيق» بين «بعدين» جديدين هما بعد «الوحدة» المحلية والتاريخية والتنظيمية والتراثية، وبعد «العالمية».

وعلى هذا فالمجمع، مناقشات وبياناً، إحصاء للأبعاد او المدارات التي يسعى نشطاء المارونية في مباشرتها و«معانقتها» (في لغة خطابية قديمة)، ويسعون في التوفيق بينها من غير خسارة او إنقاص عائد أي منها. فيثبت المجمعيون الأبعاد كلها: الكنسي الجامع المسكوني والأنطاكي السرياني، التأملي النسكي الرهباني والرسالي الدنيوي الاجتماعي، التراثي المحافظ الواحد والراهن المتجدد الكثير، الوطني والمهجري، التنظيمي الشرعي السياسي والشهادي الإيماني الشخصي.

وعلى قدر أمانة هذه الإرادة لتقليد استنه تاريخ يتخذه المجمعيون سنداً، يجمع «المملكة» الى «الملكوت» ويصل بينهما برابطة خصبة، تبدو الموازنة بين الأضداد والمنازع المتفرقة، اليوم، تمريناً صورياً من غير مادة حية. فالأبعاد لا تتساوى. وليس خفياً ان نزيف الهجرة او الانتشار يمتحن موازنة الأبعاد بعضها بعضاً. و«بطريركية» (عنوان) المجمع، اي نازعه الى تقديم المركزية والوحدة على الأطراف والبعثرة والكثرة، علاج قد لا يكون شافياً لخسارة الموارنة (واللبنانيين) لبنان الحر والمشترك وطناً وتراثاً و«رسالة»، بحسب كلمة يوحنا بولس الثاني المؤاسية. وتقديم التوحيد، وأداته ورتبته مهددتان في معقلهما، على الانتشار يخالف تراثاً مارونياً ولبنانياً قدم الفعل التلقائي والطوعي على الإدارة التنظيمية، ولو ملهمة. فهل نقرأ في هذا نذر طالع يجلو عنه الرجاء على نحو ما يتركنا المهاجرون؟

* كاتب لبناني.

مدى علاقة الجينات بالإبداع... ولماذا يعجز الذباب عن التمرد؟

نوال السعداوي *

■ على رغم دراستي الطبية وايماني بأهمية العلم، إلا انني لستُ مع الاتجاه الحديث (أو ما بعد الحديث) الذي ينكر دور الحياة الاجتماعية وتجارب الحياة في تكوين شخصية الانسان، ويقول إن الشخصية تورث، مثل لون العينين عبر الجينات وما يسمى الـDNA. ولا يمكن أحداً أن يتجاهل دور الـDNA أو الجينات في العملية الوراثية، ذلك أننا جميعاً (كبشر) نرث عن الآباء والامهات والجدود والجدات بعض الصفات، والمثل القديم الذي يقول: «العرق يمد لسابع جد» صحيح الى حد كبير، وهو يمد لسابع جدة أيضاً.

إلا أن العوامل الوراثية أو الجينات ليست وحدها المسؤولة عن صفاتنا. نحن جميعاً، نساءً ورجالاً، في الشرق أو الغرب، نحن نتاج العوامل الخارجية في المجتمع والتاريخ بمثل ما نحن نتاج العوامل الداخلية في اجسادنا وخلايانا الحية ودمائنا وهرموناتنا، لقد انتهت نظرية سيغموند فرويد القائلة إن «البيولوجيا هي مصيرنا».

مثلاً، أنا وُلدت داخل اسرة تحترم المرأة، رأيت ابي في طفولتي يحترم أمه وأمي، على رغم أن ابي جاء من اسرة فقيرة ريفية، لكنه رأى أمه الفلاحة القوية الشخصية تتحدى العمدة، وتثور مع الفلاحات والفلاحين ضد الملك والانكليز، واستطاعت ان ترسله الى الازهر ليتعلم، غرست فيه الثقة بنفسه، وتضرب بيدها القوية المشققة على بطنها، وتقول: «كلنا اولاد تسعة شهور»، و«العمل عبادة» وحكم شعبية أخرى كانت ترددها جدتي الفلاحة، جعلت ابنها السيد (والدي) يتفوق على زملائه في الازهر، بل يتفوق على اساتذته، ويطلب منهم تطوير التعليم الازهري، لكنهم لم يستمعوا اليه، بل حاربوه لئلا يحصل على درجة استاذ على رغم أنه من الاوائل.

لهذا هجر ابي الازهر ودخل مدرسة القضاء الشرعي، وكانت اكثر تقدماً وتطوراً في فهم الشريعة، وحقوق الرجال والنساء في الاسلام، وكانت افكار الشيخ محمد عبده تمارس في هذه المدرسة، وتخرجت فيها شخصيات من الذين لعبوا دوراً في النهضة الفكرية والحركة التحريرية في الثلاثينات والاربعينات والخمسينات من القرن العشرين.

لم تعش هذه المدرسة الجديدة للقضاء الشرعي المتطور إلا ٢٠ عاماً فقط، وأغلقت العام ١٩٢٨ بواسطة الحكومة المصرية الخاضعة للانكليز، واستطاع ابي ان يستكمل تعليمه العالي في «مدرسة دار العلوم»، وكانت متطورة ايضاً، على رغم العثرات المتكررة التي اصابتها لتعود الى حظيرة الجمود.

هذه الظروف الخارجية كان لها تأثير كبير في تكوين شخصية أبي، الى جانب الجسم القوي الفارع الذي ورثه عن أمه الفلاحة التي كانت قامتها اكثر ارتفاعاً من قامة الرجال في القرية، وحين مات زوجها وهي شابة صغيرة تفرغت للعمل في الحقل، والتمرد مع الفلاحين.

ورثت عن أمها «الغزاوية» جينات التمرد على الظلم، لأن البيولوجي لا ينفصل عن الاجتماعي، وتتشكل خلايا العقل وتتطور مع الحركة الفردية والاجتماعية للانسان، امرأة او رجلاً.

وكثيراً ما يواجهني هذا السؤال: لماذا يتمرد الانسان أو الانسانة ضد الظلم؟ أو لماذا يخضع الانسان للظلم ويستكين؟ أهي الجينات أو الـDNA؟ أو التربية والظروف الخارجية؟

لا شك في أن الـDNA في اجسادنا يُمثل قوة عظمى، ويتكون من ثلاثة بلايين وحدة ترسم خريطة الجينات، أو خريطة «الجينوم» (ليست خريطة الطريق) وهي تكتسب معناها فقط في إطار حياتنا وأجسامنا وعقولنا وتاريخنا في الماضي والحاضر، ولا يمكن ان يكون لها معنى من دون هذا الإطار.

وهناك اتجاه جديد في العالم يعارض ما يسمى تكنولوجيا الجينات، او الهندسة الوراثية، او غيرها من المحاولات العلمية التجارية التي تحاول استغلال البشر تحت إسم العلم، وهي لا تقل خطورة عن المحاولات السياسية التي تحاول استغلال البشر تحت اسم الدين أو الهوية أو الاخلاق أو العفة.

وقد كثر الحديث في السنين الاخيرة عن «الجينوم» وعن محاولات لصنع الأجنة الاكثر ذكاءً من أبائها وأمهاتهم، كأنما صفة «الذكاء» او «الابداع العقلي» يمكن تفريخها في المعمل، وهي صفة معقدة، تشتمل على الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والتاريخية، التي يعيشها الانسان، اضافة الى العوامل الجسدية والبيولوجية والنفسية وتكوين الـDNA والجينات ايضاً.

تلعب الدعاية التجارية او السياسية احياناً دوراً بارزاً في نشر الخزعبلات العلمية، ومنها ما تنشره اجهزة الاعلام الدولية والعربية عن امكان زيادة ذكاء طفلك ثلاثين درجة عن المعتاد، او عن علاج طفلك من مرضه المستعصي بالجينات، يهرول الناس الى هؤلاء الدجالين، وبالطبع لا يكون هناك اي شفاء للطفل، بل يتم استبدال المرض بما هو اخطر منه، مثلاً يستبدل الضعف في جهاز المناعة عند الطفل بسرطان الدم، نتيجة ما يسمى «العلاج بالجينات» وهو نوع جديد من الدجل العلمي.

وكانت هناك دعاية تقول: «سيكون لك طفل يتمتع بذاكرة قوية، من طريق الجينات، وتكون النتيجة فقدان الذاكرة، كلياً او جزئياً، ولا يستطيع الطفل تذكر اي شيء اللهم إلا الكوابيس في النوم.

العنف العسكري الاقتصادي واللعب بالجينات

نحن نعيش مرحلة خطيرة، تكاد تشبه الازمنة الغابرة في عصور العبودية، حين كانت هجمات الهمج المسلحة على سكان اودية الأنهار المسالمين هي القاعدة والاساس.

كانت القوة العدوانية للعصابات الهمجية تسود فوق العدالة، وكانت ابواق الدعاية تنشر الكذب والخداع من اجل تضليل الناس. وهذا ما يحدث اليوم، إذ نشهد كل يوم المذابح البشرية بأيدي الهمج المسلّحين بالدبابات وأسلحة الدمار الشامل، الذين يقتلون أمام أعيننا كل يوم مزيداً من النساء والاطفال والشباب في فلسطين والعراق وأفغانستان، وغيرها.

أحد اسلحة القتل هو السلاح البيولوجي، وهو أكثر خطورة من اي سلاح آخر، لأنه يسري بين الناس من دون فرقعة، من دون صوت، يقتل الناس بأمراض وفيروسات جديدة مجهولة تماماً، لعل احدها فيروس «مرض الايدز» الذي يحصد ارواح الشعوب في افريقيا بالملايين وليس الآلاف فقط.

ارتفعت نسبة الاصابات في اكثر البلاد الافريقية الى ما بين ٢٥ و٣٥ في المئة، واتضح اخيراً ان هذا الفيروس نتج من ابحاث شركات الادوية الاميركية (في مجال الفاكسينات ضد مرض شلل الاطفال ومرض الوباء الكبدي) والممولة من البنتاغون، والتي اشتركت في توزيعها في البلاد الافريقية منظمة الصحة العالمية، احدى منظمات الامم المتحدة (انظر كتاب: نشوء الفيروسات، للدكتور ليونارد هوروتيز).

ويكشف هذا الكتاب عن الترابط بين القوى العسكرية والقوى العلمية ومراكز البحوث الطبية والدوائية في الولايات المتحدة الاميركية، كتبه طبيب اميركي يعيش في نيويورك، وعاش أحداث مرض الايدز في نيويورك وفي افريقيا، ودفعه ضميره الى ان يكتب هذا الكتاب بعد بحوث دقيقة.

وشكك العلماء والاطباء من ذوي الضمير الانساني في تلك الدعاية الاميركية المغرضة، التي بالغت في قوة الجينات او الجينوم، وبدأت حرباً نفسية إرهابية، فزع لها الكثيرون من البشر خصوصاً في بلادنا العربية، وأضافت الى العنف العسكري عنفاً آخر في مجال البيولوجيا وعلم الوراثة، احد هؤلاء اسمه بيل ماكيبين اصدر كتاباً جديداً تحت عنوان: «التمسك بالانسانية» في عصر الهندسة الوراثية يكشف فيه خطر المبالغة في قوة الجينوم، الا أنه فصل عوامل البيولوجيا عن العوامل الاجتماعية والسياسية والتاريخية. واندلعت الحرب بين العلماء المستأجرين بواسطة القوى العسكرية والاقتصادية، والعلماء الآخرين من ذوي الضمير، وانتهت الحرب بانتصار اصحاب السلاح والمال والإعلام على اصحاب الضمير، وهل نندهش لهذه النتيجة ونحن نشهد كل يوم الدماء البريئة المُراقة على ارض فلسطين والعراق؟

منذ نشوء العبودية حتى اليوم كان السلاح والمال ينتصران دائماً على الضمير والاخلاق الانسانية أولها العدل. لهذا خلت كتب التاريخ الرسمي من الضمير والعدل، وأصبح التاريخ الذي يُفرض علينا في المدارس والجامعات هو تاريخ الملوك والأباطرة ومَنْ حولهم من علماء وفلاسفة، هو تاريخ الانتصارات العسكرية في المواقع الشهيرة، وليس تاريخ الانتصارات الانسانية والشعبية على القوى المسلحة والحكومات القاهرة القمعية.

ولا يزال العلم قاصراً في مجال علوم البيولوجيا، خصوصاً في مجال الوراثة، او ما يسمى جينات الذكاء او الابداع او العبقرية الانسانية، ذلك أن القدرة على «الابداع العقلي» ليست عملية بيولوجية فحسب، لكنها عملية اجتماعية تربوية وتاريخية، تتداخل مع العملية البيولوجية، داخل الجسد والدماغ في نسيج واحد لا يقبل الانفصال، ولا بد من تعاون العلماء في مختلف هذه المجالات من اجل عمل بحوث مشتركة تربط بين الظروف الخارجية للانسان والعوامل الداخلية التي تكوّن شخصيته وصفاته.

يحاول بعض العلماء ربط العنف او العدوان في الشخصية بأحداث الطفولة فقط، أو علاقة الأم او الأب بالطفل او الطفلة، مثلاً يقولون إن العنف في شخصية هتلر جاء من القسوة التي عاناها في طفولته، مثل هذه البحوث قاصرة، لأنها تهمل عوامل اخرى كثيرة في المراهقة والشباب وفي الجسد والعقل وتاريخ ذلك الانسان، ويمكن ان يعاني الانسان في طفولته لكنه في المراهقة والشباب يعيش احداثاً اخرى تُغير من صفاته، وتجعله ميالاً الى السلم اكثر من العدوان، وقد يُولد الطفل او الطفلة، من أب غبي، أو أم بلا موهبة، لكنه أو لكنها تكتسب موهبة الابداع عبر مراحل حياتها المختلفة، أو عبر الجينات التي ورثتها عن جدتها، والتي تفاعلت مع الظروف الاجتماعية والسياسية التي عاشتها هي، ولم تعشها جدتها مثلاً.

حتى اليوم اكتشف العلم ٣٥ ألفاً من الجينات في جسد الانسان، أكثرها لا يختلف عن الجينات في خلايا ذباب الفواكه، فهل يمكن الذبابة بهذه الآلاف من الجينات الشبيهة بجينات البشر ان تبدع شيئاً؟ وهل يمكن الكاتبة المبدعة أو الرسامة أو الموسيقية (أو غيرها) ان تبدع افكارها العبقرية بحسب خريطة الجينوم او التشكيلية البروتينية في جسدها؟

كيف يتحول عقل الانسان المبدع الى مجرد جزئيات بروتينية تعوم داخل الخلايا أو سوائل المخ. لا شك في أن وظائف خلايا المخ لا تزال غير معروفة للعلماء، ولم يكشف العلم بعد إلا عن خُمس ما يقوم به مخ الانسان من عمليات عقلية لأن عقل الانسان لا يتكون فقط من لحم الدماغ ولكنه يتكون ويتطور مع الأحداث والتجارب الاجتماعية التي يمر بها ذلك الانسان، والتي تؤثر في الخلايا وتغيرها وتطورها لتصبح خلايا جديدة، تربط على نحو مبدع الجسد بالعقل بالروح بالمجتمع والتاريخ والسياسة وكل شيء، هذا الترابط هو الإبداع. ربما لهذا السبب لم يتطور دماغ القرد كما تطور دماغ الانسان، على رغم التشابه الكبير بين الـ ٣٥,٠٠٠ من جينات القرود مع جينات الانسان، ولهذا ايضاً لم يتطور مخ الذباب على رغم تشابه الجينات وتشكيلة البروتينات. ليس للذباب ذاكرة تاريخية او علوم اجتماعية.

منذ عهد غير بعيد، منذ ٦٠ عاماً، حين كنت طفلة في القرية، سمعت الرجال يقولون إن مخ البنت اقل من مخ الولد، لا شك في انهم ورثوا هذه الفكرة عن فيلسوف العصر العبودي في اليونان ارسطو الذي قال إن المرأة والحيوانات يندرجن تحت بند «الاشياء» وليس «البشر» مثل الرجال، وأن بويضة المرأة ميتة وليس فيها حياة، وأن الحيوان المنوي الذكوري هو وحده الذي يصنع الجنين الحي.

إلا ان جدتي الفلاحة كانت اكثر ذكاءً من رجال عصرها، ربما لأنها لم تقرأ ارسطو، وهي التي شجعت ابنها السيد (ابي) على الإبداع والتمرد، ذلك أن الابداع والتمرد وجهان لعملة واحدة وهما يكتسبان من تجارب الحياة الحية، ومن الصراع المستمر ضد قوى الظلم والجهل، كما انهما يُورثان ايضاً عبر الجينات وخلايا المخ والجسد والـDNA.

يحتاج الإبداع الى تمرد دائم كما يحتاج التمرد الى إبداع دائم، لهذا تطورت الحياة الانسانية وتطور معها العقل البشري على نحو مذهل. ولهذا ايضاً يعجز الذباب عن التمرد، لأنه عاجز عن الإبداع، وفي الوقت الذي يطير الانسان بعقله من دون جناحين، يعجز الذباب عن الطيران إلا الى المسافة التي اعتادها منذ آلاف السنين.

* كاتبة مصرية.

في ذكرى رحيل فيصل الأوّل (٣ من ٦)

الجُرح العِراقيّ عربيّ أوّلاً

الحسن بن طلال *

■ ليس في وُسْع أحد أنْ يُوهِمَ العراقيّين بأنهم الآن أحرار. إنّ التّصرّفَ بمنطق «حقّ المنتصر» مختلف تماماً عن التّصرّف بمنطق الانتصار لحقّ الشّعب العراقيّ في تقرير مصيره والتّمتّع بكُلّ حقوقه. ففي الحال الأولى سيتمّ تدمير كلّ أُسس الأمن الإنسانيّ في العراق؛ وستُلغى كلّ الحرّيّات، بما فيها حقّ الحياة وحقّ العمل في الوطن؛ وستُفتح أسواق العراق بقوّة السّلاح أمام بضائع المحتلّ وحلفائه؛ وسيَعْتَبِرُ المُحْتَلُّ المقاومة إرهاباً!

من المؤكّد أنّه إذا أعطى الاحتلالُ حقّاً للمُحْتَلّ بنَهْب الثّروة الوطنيّة للدّولة المحتلّة، وتدمير آثارها الحضاريّة وفنونها، وتشويه دينها ومسْخه، فإنّه يُعطي في اللّحظة نفسها حقاً مطلقاً غير مشروط لكلّ عراقيّ في مقاومة الاحتلال بكلّ صوره. فهل نقول: إنّ أميركا مع العراق؟ أم نقول فقط إنّ أميركا في العراق؟! من الضّروريّ أنْ يتذكّر الجميع أنّ حقّ المنتصر ليس حقاً مشروعاً؛ وأنّ الانتصار الحقيقيّ ليس في الدّمار ولا في النّهب ولا في الإذلال: إنّه الانتصار على غرائزنا وجشعنا وأنانيّتنا؛ وإلاّ فإنّ «الانتصار» مسألة متداولة تاريخياً بين كلّ «الطّغاة» وبين كلّ المؤمنين بالإنسانيّة: [وتلكَ الأيّامُ نُداوِلُها بيْنَ النّاس] [سورة آل عمران: (٣) الآية ١٤٠].

يقول المتشكّكون من العرب: من الصّعب أنْ نثقَ في كلمات الولايات المتّحدة الموجّهة الى العرب. لقد استعملت الولايات المتّحدة حقّ النقض (الفيتو) في مجلس الأمن أربعاً وثلاثين مرّةً لحماية إسرائيل والنّظام العُنصريّ السّابق في جنوب إفريقيا، ولم تستعملْه ولو مرّةً واحدة دفاعاً عن حقّ أيّ شعب عربيّ. وهي ترفض بكلّ غضب أنْ يذكّرَها أيّ إنسان برفض إسرائيل تنفيذَ أيّ قرار لمجلس الأمن طوال خمسين عاماً. وفي الوقت نفسه، تعدُّ صبرَها قد نَفد بعد شهور من عدم استجابة صدّام حسين لمطالبها!

هل تكرارُ القول «إن أميركا في العراق لتحريره» في الصّحف والإذاعات ومحطّات التلفزيون بكلّ اللّغات – بما فيها العربيّة بالطّبع – كافٍ لإقناع الشّعب العراقيّ والأمّة العربيّة والإسلاميّة بأنّ الأمر كذلك؟! وهل يمكن أنْ يرحّبَ العراقيّون باحتلال وطنهم وتدمير إنجازاتهم المعاصرة وآثارهم الحضاريّة؟! هل نحن أمام تحرير العراق؟ أم أمام تحرير الشّعب العراقيّ من تراثه وثقافته وماضيه ومستقبله؟!

هل يُعقلُ أنْ يتمّ نشر الدّيموقراطيّة عبْرَ تجويع ملايين العراقيّين حتّى الموت؟ أتصدّ بمنع كلّ عراقيّ بعثيّ (سابقاً) من العمل؟

هاكم طائفةً من الحقائق والأرقام المفزعة عن العراق:

– سقط من المدنيّين العراقيين نتيجة القصف زُهاء عشرة آلاف قتيل. أما بالنّسبة الى القتلى العسكريّين فحدّثْ ولا حَرَجَ!

– وفقاً لأقلّ المصادر رقماً، فإنّ أكثرَ من نصف مليون طفل عراقيّ ماتوا في اثني عشر عاماً من الحصار.

–اذا كانت كُلفة الحرب الأخيرة تراوحت بين ٥٠ و٢٠٠ بليون دولار، فإنّ كُلفة الاحتلال حتّى الآن تراوحت بين ٥ و٢٠ بليون دولار.

وإذا كانت الولايات المتحدة تطلب من الدّول إرسال قوّاتها إلى العراق ليدفعوا هم ثمنَ احتلالها هي، فهل يَعني هذا كما قال أحد الأميركيّين: أنّ الوضع في العراق خرج عن السّيطرة؟ يقول برادلي كيسلنغ، الديبلوماسيّ الأميركيّ السّابق: «كلّما استعملنا قوّتنا العاونيّة على نحو أكبر لترويع أعدائنا، استحدثنا أعداءً أكثر، وسوّغنا استخدام الإرهاب سلاحاً فعّالاً أوحدَ للذين لا قوّةَ لهم ضدّ الأقوياء».

من ذا الذي ينكر أنّ هنالك توثُّباً في مختلف مدن العراق، وأنّ الصّبْرَ لن يدوم؟ حين تبدأ المقاومة – ولعلّها لمَ تبدأ بعد! – سيُراق الكثير من الدّم العربيّ والأميركيّ أيضاً، وستجتاح المنطقة العربيّة والإسلاميّة موْجات من الكراهيّة لأميركا والغرب. وقد يدوم هذا سنينَ وسنين. الاستماعُ إلى الحقيقة أولى من الاستماع إلى أصحاب المصالح الصّغار. وكاتب هذه السّطور لا يحبّ ولو للحظة واحدة أنْ يُراقَ دم عراقيّ أو عربيّ أو مسلم، مثلما لا يحبّ ولو للحظة واحدة أن يُراق دم أميركيّ أو سواه. لكن إذا أسفر الاحتلال عن استعمار، فسيُراق الدّم حتماً بغيْر حساب.

هل هنالك منَ المنتصرين حتّى الآن في العراق مَنْ يتذكّر أنه لمْ تنجحْ أيّ قوّةٍ ماديّة طوال التّاريخ في تدمير فكرة اعتنقها شعب؟ لا يَهزمُ الفكرةَ إلاّ فكرةٌ أفضلُ منها في نظر الشّعب. لهذا أتساءل: هل دول التّحالف على استعداد لوضع ثقتها المطلقة في الشّعب العراقيّ باعتباره الجهةَ الوحيدة الجديرة بالثّقة والقادرة على حماية الفكرة؟!

لنقلْ بصراحة: إنّه إذا عزمت الشّعوب على تحويل استيائها المعاصر من سياسة الولايات المتّحدة إزاءها إلى مقاومة مسلّحة، فسيشهد التّاريخ مستقبَلاً مروِّعاً للطّرفيْن. العراقيّون لن يتسرّعوا – في ما يبدو لي – في قَبول ما سيُعرض عليهم من مشروعات، وأصحاب المصالح الصّغار لن يمكثوا في الأرض.

إن الشّعوب العربيّة والمسلمة مدعوّة، عَبْرَ كلّ مؤسّساتها، إلى إنشاء صندوق لأموال الزّكاة والصّدقات والتّبرّعات لإنقاذ شعوبهم المذبوحة والمعذّبة، ولتمكينهم من البدء بعمليّة تنمية ذاتيّة صحيّة تجسّد الأُخوّة في الله والوطن والإنسانيّة. والمؤسّسات العربيّة الجماهيريّة مدعوّة للاتّصال بالقوى العراقيّة في الدّاخل، ومساعدتها بالفِعْل لا بالخُطَب والبيانات. فالجُرْح العراقيّ عربيّ أوّلاً.

* رئيس منتدى الفِكر العربيّ وراعيه. رئيس نادي روما.

ألف وجه ألف عالم

لوبي دي فيغا يدعو الى قواعد أرسطو ثم يخرقها

■ كان فليكس لوبي دي فيغا معاصراً لثربانتس، صاحب «دون كيشوت». وفي بداية الأمر كان هذان الكاتبان الاسبانيان الكبيران، صديقين حميمين، لا تشوب علاقتهما شائبة. والزمن الذي عاشا خلاله (بدايات القرن السابع عشر) كان زمن خصوبة في الانتاج الفكري والأدبي، وأشبه ما يكون بعصر ذهبي تتوالد فيه الافكار وتتصادم في شكل ايجابي خلاق، وفي شكل لا يترك مجالاً لصراعات حقيقية. ومع هذا ما إن اصدر ثربانتس روايته الكبرى «دون كيشوت»، حتى انقلبت الصداقة عداءً لا يمكن لأمر أن يبرره، وإن كان في خلفيته نص كتبه دي فيغا ينتقد فيه رواية صديقه معتبراً اياها عملاً تافهاً أشبه ما يكون بنجارة زعفران جوالة من مكان الى آخر. ويقال حتى ان دي فيغا كان وراء اصدار نص مزيف تافه نسب الى ثربانتس للانتقاص من قيمته الفكرية.

والحال ان مكانة لوبي دي فيغا في ذلك الحين، كان في امكانها ان تشرح لنا موقفه السلبي من انجاز صديقه القديم، ذلك ان رواية ثربانتس وضعت هذا الأخير على الفور في موقع متقدم جداً في الخارطة الابداعية الاسبانية في ذلك الحين، ما كان له – حقاً – ان يخيف وينبه دي فيغا الذي كان يشغل موقع الصدارة، ولا يريد لأحد ان يشاطره ذلك الموقع. ومهما يكن من الأمر، فإن العداء مع ثربانتس لم يكن كل شيء في حياة دي فيغا. بل يدهشنا اليوم ان يكون هذا الأخير وجد لديه من الوقت ما يكفي لادارة صراع من ذلك النوع مع صديقه. فهو كان معروفاً بغزارة انتاجه الى درجة مذهلة. اذ، حتى وإن كان ما يحصى اليوم من المسرحيات التي كتبها يصل الى نحو ٤٠٠ مسرحية، فإن ثمة من المصادر المؤكدة ما يفيد بأن لوبي دي فيغا كتب خلال مساره المهني اكثر من ١٨٠٠ مسرحية كوميدية، اضافة الى نحو ٤٠٠ مشهد مفرد.

ويمكن ان نضيف الى هذا الكمّ الهائل عشرين مجلداً تضم كتاباته النثرية ورسائله والعديد من النصوص النظرية. ولعل الأشهر بين هذه النصوص الأخيرة، الكتاب الصغير الذي أصدره لوبي دي فيغا في العام ١٦٠٩، أي في زمن كان فيه ملء السمع والبصر، وتعتبر مسرحياته الكثيرة المقدّمة على الخشبات غذاءً روحياً يومياً لأهل المدن الاسبانية، وهذا الكتاب الذي يعنينا هنا هو «الفن الجديد في كتابة الكوميديا».

● في هذا الكتاب، الذي يعتبر من الأعمال القليلة التي كتبها كتاب مسرح في زمن دي فيغا شارحين فيها أسلوب كتابتهم، واضعين فيها أسس وقواعد الكتابة المسرحية، ينطلق هذا الكاتب من التأكيد، منذ البداية، على تمسكه بالقواعد الأرسطية، التي كانت سائدة في ذلك الحين. بالنسبة اليه هذه القواعد شديدة الأهمية، لأن من الضرورة بمكان ان يكون للفن الشاعري (وفن كتابة المسرح جزء منه) قواعد وقوانين متبعة تضبط الكتابة وتكون في نهاية الأمر، سائرة على نمط الكوميديا الايطالية. غير ان دي فيغا يستطرد هنا قائلاً إن «علينا ان نلاحظ ان الكوميديا في زمننا انما تكتب لجمهور يريد ان يتسلّى ويرفه عن نفسه، جمهور يزعجه وينفره الافراط في التنظير وسلوك درب

فليكس لوبي دي فيغا (١٥٦٢ – ١٦٣٥).

الصعوبة». وهنا يقول دي فيغا عن هذا الجمهور: طالما ان الجمهور يدفع يكون من الصواب والعدل ان نتكلم لغته لكي تعجبه». غير ان دي فيغا سرعان ما ينبهنا الى انه، في الواقع، لا يتبع هذا المبدأ بحرفيته المبتذلة: كل ما في الأمر انه يريد هنا ان يقول ان الكوميديا، بما انها «انما كتبت لكي تمثل، يتعين عليها ان تتبع ما تتطلبه المشاهد نفسها، تبعاً لذوق الجمهور، لا تبعاً لأفكار ومبادئ يمكن المرء ان يعثر عليها في بطون الكتب وثناياها». ثم ان دي فيغا يذكر لنا هنا أنه «في الاحوال كلها لا يضفي على الكوميديا نفسها اي أهمية زائدة على حدها». فهو، الكاتب الذي عكف طوال حياته على كتابة الأعمال الكوميدية مستفيداً منها أقصى إفادة ومحققاً عبرها أقصى درجات النجاح لا ينتظر من الكوميديا ان توفر له الشهرة، ولا حتى اعجاب الجمهور المثقف: الشهرة لا يمكن ان تأتيه الا بفعل كتب يضعها وتكون «ذات مستوى ارفع وتقدم تقني مميز». ومع هذا نعرف ان لوبي دي فيغا كان هو – اصلاً – الذي اخترع الكوميديا الاسبانية... وهو حين اخترعها وراح يكتب ما معدله من ثلاث الى أربع مسرحيات في الشهر، لم يأخذ في الاعتبار اي مواثيق متعارف عليها، ولم يتبع اي قواعد وضعها مؤلفو الدراسات المسرحية. ومن هنا نراه، تحت ذريعة الاعتذار ازاء هذا الافتقار الى اتباع القواعد، يهجو «الكبرياء العقيم لعدد كبير من الكتّاب» في أسلوب متكبر متعجرف يبدو انه راق لأهل زمانه. لكن هذا لم يكن كل ما في الكتاب. اذ إن دي فيغا حرص في بعض فصوله على التوغل في الكثير من القواعد التقنية للكتابة المسرحية، حيث نرى صفحات تفصيلية عن مختلف الأدوار المسرحية ودورها في تطور الفعل الدرامي. ونجد الكثير من الصفحات التي يشرح لنا دي فيغا فيها، أساليب الاستخدام المثلى للعروض والقوافي ولبحور الشعر وما شابه. اذ نجده، مثلاً، يفيدنا ان استخدام بحر معين، يتألف من عشر موازير، ينفع لمشاهد الشكوى والنجوى، كما ان السوناتا نفسها تشكل أفضل أسلوب للتعبير عن النجوى. بينما ينفع للسرد بحر يتألف من سلسلة من ثمانية مقاطع. أما المقاطع الثلاثية فإنها تكون شديدة التأثير في المواضيع الخطرة... وما إلى ذلك.

● حتى ولو كان هذا الكتاب الذي وضعه فليكس لوبي دي فيغا في مرحلة زاهرة من مساره الفني، يعتبر عادة دليلاً متميزاً للكتابة المسرحية، وبدا مملوءاً بالقواعد وبالاستطرادات التي تأتي هنا لتطور افكار ارسطو، فإن العديد من الباحثين يرى ان دي فيغا اذ ركز في بعض جوانب كتابه الاساسية على ضرورة ربط الفن بالطبيعة، بدا وكأنه يهتم بوضع تبرير لأعماله السابقة، أكثر من اهتمامه بوضع قواعد يتعين على الكتاب اتباعها في المستقبل... إذ ان الكاتب، وفي الكثير من صفحات كتابه يمجد أعماله التي كانت حاضرة في اذهان الناس معتبراً كلاً منها نموذجاً يحتذى، بخاصة أنه في كل مرة يضع فيها قاعدة جديدة او يطور فيها قاعدة معروفة من قواعد الكتابة المسرحية، يجعل من مسرحيات وشخصيات هذه المسرحيات، النموذج الذي يجب ان يحتذى، والم